الفصل الثاني

المعبد والعبادة اليهودية
في التوراة والقرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

ترتبط عبادات كافة الشعوب بمعابد وأماكن تمارس فيها الطقوس الخاصة بهذه العبادات، وقد شكل المعبد لبني إسرائيل في مرحلة من المراحل ركناً أساسياً في عباداتهم وطقوسهم، غير أن الدارس لحياة بني إسرائيل ومراحلها يرى أن المعبد لم يكن ذا أهمية تذكر، إلا في مرحلة حكم داود وسليمان عليهما السلام. ولذلك فلم تكن عباداتهم واضحة المعالم في مراحل عدة من حياتهم.

وإذا سرنا مع نصوص التوراة التي تفترض أن بني إسرائيل من نسل يعقوب وإسحق وإبراهيم تبرز لنا عبادات وطقوس تطورت مع تطور العقيدة اليهودية أو مع تطور عقيدة بني إسرائيل. ويمكن في هذا الإطار أن نقسم ملامح العبادة حسب الشكل التالي:

1 ـ عبادة بني إسرائيل في الجذور قبل الخروج من مصر.

2 ـ عبادة بني إسرائيل في سيناء.

3 ـ عبادة بني إسرائيل بدءاً من التسرب إلى أرض فلسطين حتى قيام مملكة داود.

4 ـ عبادة بني إسرائيل زمن داود وسليمان عليهما السلام.

5 ـ عبادة بني إسرائيل بعد انقسام مملكة سليمان عليه السلام.

6 ـ عبادة اليهود أيام السبي البابلي.

7 ـ عبادة اليهود منذ السبي البابلي حتى بعثة السيد المسيح عليه السلام.

يرد حديث مفصل في التوراة عن النبي إبراهيم عليه السلام فهي تعتبره جد بني إسرائيل الأول. فهو الذي أنجب إسحق. وإسحق أنجب يعقوب. ومن يعقوب خرج إثنا عشر إبناً شكلوا ما يسمى قبائل بني إسرائيل. ويستغرق الحديث عن إبراهيم معظم سفر التكوين. ولكن التركيز التوراتي كان على الوعد الذي تصوره التوراتيون والعهد بين الله وإبراهيم لمنحه الأرض الكنعانية له ولنسله من بعده.

وما يلفت النظر أن التوراة لا تذكر إلا بعض طقوس العبادة التي قام بها إبراهيم طوال حياته. وأول ما يظهر في بعض علاقة العبادة بإبراهيم هي إشارة

التوراة إلى أن إبراهيم بنى مذبحاً للرب الذي ظهر له. فتقول: (وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له) تكوين 12/ 8 وتقول: (فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب) تكوين 12/ 8 ثم تقول: (فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون فبنى هناك مذبحاً للرب) تكوين 13/ 18 وفي الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين تظهر شعيرة تعبدية لدى إبراهيم وهي أمر الله له بالختان.

تقول التوراة: (يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم) تكوين 17/ 10/ 11/ 12. وتقول التوراة: (فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين خُتن في لحم غرلته وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته) تكوين 17/ 23/ 26 وأصبحت شعيرة الختان تقليداً لجميع الأمة الموحدة وليس فقط لبني إسرائيل وقد سار رسول الله محمد ﷺ على سنة أبيه إبراهيم عليه السلام. فلا يصح للمسلم أن يكون مسلماً صحيحاً إلا إذا اختتن.

وفي الإصحاح الثامن عشر يرد في التوراة أن إبراهيم سجد عندما رأى ثلاثة رجال واختلط الأمر لديه فظن أن الله واحد من الثلاثة حسب قول التوراة (فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك) تكوين 18/ 2/ 3.

ويتضح من خلال هذا النص أن سجود إبراهيم يختلط بين سجود الإجلال والتعظيم وسجود العبادة. لكن الذي يرجح أن سجوده سجود احترام هو فجائية قدوم الرجال الثلاثة دون سابق إنذار.

ويرد في الإصحاح العشرين إشارات لصلاة قام بها إبراهيم. وهذه الصلاة عبارة عن توجه لله ودعائه كي يشفى أبيمالك. تقول التوراة: (فصلى إبراهيم إلى

الله فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه) تكوين 20/ 17 ويرد في التوراة أيضاً: (وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما) تكوين 22 / 5 وتتكرر عملية سجود إبراهيم في حالتين حالة السجود لأشخاص وحالة سجود لله كشكر له ودعاء. تقول التوراة (فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث) 23/ 7 ويرد أن إبراهيم قد دفن زوجته سارة في مغارة المكفيلة في حبرون. ثم يرد أن إسحق وإسماعيل دفنا أباهما إبراهيم في مغارة المكفيلة في حبرون.

ومن خلال سيرة إبراهيم في التوراة نرى أنه آمن بالله وحده. وعبده من خلال صلاة محددة. وقد خُتن كما أمره الله. ثم دفن زوجته ودُفن هو أيضاً حسب ما علمه إياه الله. وبنى مذابح للرب ومحرقة كان يريد أن يذبح ابنه عندها. ولكن المدقق في عبادة إبراهيم يرى أنه كان يفتقد للمعبد الذي يرمز للتوحيد. فليس في التوراة أي ارتباط بين إبراهيم وبين معبد له صفة القدسية الإلهية. وصلاته التي كان يؤديها حسب وصف التوراة تختلط بين صلاة التعبد وصلاة السجود، الذي قام به ليس جميعه سجود عبادة إنما فيه سجود احترام وتقدير كما مر معنا.

وإذا تابعنا مسيرة التوراة في حديثها عن بقية الأنبياء الأولين نرى أن الأمور لم تختلف كثيراً إنما زيد عليها وذلك لتضفي التوراة عليها شيئاً من القدسية والتضخيم. فإسحق لم يصلّ ولم تتضح كيفية عبادته. حيث أن التوراة ركزت على أمور أخرى بعيدة عن العبادة.

أما يعقوب فإن حديث التوراة عن عبادته يبدأ حين تشير إلى حلم حلمه يعقوب. وادعت فيه أنه رأى الله فقام من نومه ونصب الحجر الذي كان يضع رأسه عليه عموداً وصب عليه الزيت وقال هذا معبد الرب. تقول التوراة: (وخاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء) تكوين 28 / 17. وتقول التوراة: (وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل) تكوين 28/ 18 / 19 وتقول التوراة: (وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإني أعشّرُهُ لك) تكوين 28 / 22

ويرد في التوراة: (أنا إله بيت إيل حيث مسحتَ عموداً حيث نذرت لي نذراً) تكوين 31/ 13. وهذه الإشارة توضح أن مسح العمود كان عادة متبعة لدى تلك الأقوام الرعوية البدوية التي ليس لها مكان تستقر فيه وبالتالي ليس لها معابد تقدس الله من خلاله. وفي الإطار نفسه نرى أن عقد العهود بين المتعاهدين يتم بنصب عمود من الحجارة لتكون شاهدة على ذلك العهد. ويرد في التوراة حول ذلك قولها: (انظر الله شاهد بيني وبينك. وقال لابان ليعقوب هوذا هذه الرجمة وهوذا العمود الذي وضعت بيني وبينك. شاهد هذه الرجمة وشاهد العمود إني لا أتجاوز هذه الرجمة إليك وإنك لا تتجاوز هذه الرجمة وهذا العمود إليَّ للشر) تكوين 31 / 50/ 52 وهذا النص يدل على أن يعقوب يريد أن يكون الله شاهداً على عهدهما لكن لابان يريد أن يقدم الأوثان شاهدة. باعتباره كان وثنياً ويدل على وثنيته أن التوراة تورد أن راحيل سرقت أصنام أبيها. لكن السؤال الذي يطرح نفسه كيف يجيز يعقوب لنفسه وهو الموحّد أن يذهب إلى خاله الوثني ويتزوج ابنتيه الوثنيتين؟ نترك الجواب لأن المسألة هذه لها مجال آخر للتعليق عليها.

وفي سيرة يعقوب في التوراة يرد الكثير من الإشارات إلى سجود يعقوب لأخيه عيسو وكذلك سجود أولاده ونسائه لأخيه حتى أن التوراة تورد أن يعقوب (سجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه) تكوين 33/ 3. وهذا السجود عادة متبعة للاحترام وليس للعبادة. ويرد أيضاً أن يعقوب أقام مذبحاً للرب ودعاه إيل إله إسرائيل. ثم يرد مرة أخرى أن الله قال ليعقوب قم اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك واصنع هناك مذبحاً لله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك. فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم ولنقم ونصعد إلى بيت إيل فأصنع هناك مذبحاً لله الذي استجاب لي في يوم صنيعتي وكان معي في الطريق الذي ذهبت فيه) تكوين 35/ 1/ 4. وهذا النص يشير لنا بأن يعقوب ارتبط بعبادة الإله الواحد وأدرك أن الذي يتعلق قلبه بغير الله أي بالأصنام عليه أن يطهر نفسه ويطهر ثيابه. وهذا ما ندركه من خلال عقائد التوحيد

أن الأصنام رجس أو نجس يجب التطهر منها نفسياً وجسدياً . وقد جاء في التوراة أن يوسف عندما بعث لأبيه ليأتي إلى أرض مصر بعد أن يخبره إخوته أنه حي يرزق يقوم يعقوب بذبح (ذبائح لإله أبيه إسحق) تكوين 46/ 1 . أما الإصحاح الخمسون فإنه يورد بعضاً من الطقوس المصرية التي نفذها يوسف . وهي أنه أمر بتحنيط أبيه . تقول التوراة : (وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه . فحنط الأطباء إسرائيل وبكى عليه المصريون سبعين يوماً . ثم تقول التوراة عن موت يوسف : (ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر . هذا ما يمكن أن نجده من بعض العبادات التي تمسك بها الأنبياء الأولون منذ إبراهيم حتى يوسف عليهم السلام . وبذلك تكون مرحلة من المراحل التي أشرنا لها وهي مرحلة الجذور التي يدّعي اليهود فيها أنهم ينتسبون إلى إبراهيم وأحفاده .

ومنذ بداية هذه المرحلة نلاحظ أن إشارات كثيرة أوردتها التوراة حول بعض أشكال الصلاة . وبعض أشكال المذابح التي كان يقيمها بنو إسرائيل والأدعية وبعض العادات الدينية كالتطهير من الأصنام وما شابه ذلك ولا يرد في هذه المرحلة أي ذكر لأي نوع من الصيام أو الزكاة أو تقديس بيت مخصص لله كمعبد يرمز لعقيدتهم . وقد برزت بعض أخلاقيات الأنبياء وسلوكياتهم في هذه المرحلة . كالتسامح . ورفض الزنا وإجراء العقوبة لمن يزني إلا أن التوراة تساهلت في بعض المواقف بفعل القبائح . مثال ما فعل يهودا عندما زنا بكنّته الميت زوجُها . ومثال تساهل راحيل حينما سرقت أصنام أبيها لتعبدها بعدما عزم يعقوب على الرحيل من عند خاله لابان . أو قيام أحد أبناء يعقوب بفعل الزنا مع إحدى جواري يعقوب . أما المذبح فقد ورد ذكره في التوراة أكثر من أربعمائة مرة . وقد ورد ذكره في سفر التكوين أي في المرحلة الأولى من مراحل العبادة عند بني إسرائيل كما ترى التوراة مرات عدة . وهو بهذا المعنى يشكل شيئاً مهماً مرتبطاً بالعبادة . والمذبح يعني المكان المرتفع الذي تقوم عليه الذبيحة أو التقدمة أو البخور أثناء العبادة .

وقد بنى القدماء المذابح على أشكال عدة وتختلف باختلاف الأمم التي كانت

تقيمها. فمنهم من كان يبني المذبح مستديراً ومنهم من يبنيه مربعاً. وعلى الغالب فإن المذابح كانت تكرس لبعض الآلهة وتسمى بأسمائها. وبعضها لم يكن له اسم إطلاقاً. وكان القصد من بناء المذابح الاستغاثة بالله أو تقديم الشكر له أو طلب رحمته وكانوا يؤثرون لذلك المناطق المرتفعة في أغلب الأحيان. ولعل السر في تفضيل المكان المرتفع لإقامة المذبح راجع إلى فكرة الاقتراب إلى الله إلى جانب لياقة المظهر وجلاله.

وكانت المذابح تبنى تذكاراً للحوادث العظيمة. وفي البداية كانت المذابح تصنع بدون شكل أو رسم معين. ولم تكن متقنة البناء إلا عند بعض الوثنيين الذين كانوا ينحتون وجوه آلهتهم في صخرة المذبح. أما سائر المذابح فقد كانت عبارة عن كومة مربعة من الحجارة. أو تل من التراب، يصنعه الإنسان أمام خيمته حيثما حل للعبادة أو تذكاراً لمقابلة مع الله. وعلى هذا الأساس صنع يعقوب عليه السلام مذبحه في بيت إيل من الحجر الذي توسده ليلة هروبه من أخيه عيسو ومقابلته لله. تك 28/ 35/ 14 هذا هو المذبح الذي أطلق عليه الباحثون اسم المذبح العامي أو الشعبي الذي كان يجوز لكل واحد أن يقدم عليه ذبائحه. لهذا فليس عجيباً أن يبدأ الله معاملاته ـ حسب قول التوراة ـ مع بني إسرائيل بهذا المذبح حالا بعد الوصايا العشر. ويتدرج الله مع بني إسرائيل فيحدثهم عن المذبح الذي من حجر أو من حجارة غير منحوتة صحيحة بدون حفر أو نقش لئلا يعتبر بمنزلة الصور أو التماثيل الوثنية. ثم تدرج الله مع بني إسرائيل فأعلن لهم عن مذبح آخر يسميه بعضهم المذبح الكهنوتي وقد قدمه الله على يد النبي موسى عليه السلام. فكان مختلفاً عن كل المذابح السابقة إذ صنع من خشب السنط المغشى بالنحاس أو الذهب بمقاييس دقيقة أعلنها الله لموسى. ولا يجوز أن يقدم ذبيحة على هذا المذبح إلا للكاهن اللاوي ويوضع هذا المذبح (مذبح المحرقة في مدخل خيمة الاجتماع)[1].

ومما تقدم نرى أن العبادة التي قام بها إبراهيم عليه السلام وأبناؤه وأحفاده حسب ما ورد في التوراة، لم تكن ترتبط بشيء اسمه المعبد. ولا ترتبط بزمان

(1) قاموس الكتاب المقدس صفحة 385 ـ 386.

محدد وهذا يعني أن ما ورد يدل على أن عبادة الصلاة وإقامة مذبح للرب هما أهم معلمين من معالم العبادة عند هؤلاء الأنبياء. وإذا عدنا إلى نصوص القرآن الكريم نجد الأمر مختلفاً تماماً عما ورد في التوراة. فإبراهيم عليه السلام اختاره الله ليكون نبياً بل وإماماً للمتقين. فإبراهيم عليه السلام منذ حداثته يرفض عبادة الأصنام ويتعلق بعبادة الله الواحد الأحد وإبراهيم يلبي أمر الله بالهجرة من أرض الكفر إلى أرض أخرى ليبلغ رسالة التوحيد.

ولكن الأهم من سيرة هذا النبي حسب ما ورد في القرآن الكريم هو تنفيذ أمر الله سبحانه ببنائه البيت الحرام أولاً وذلك لغايات واضحة وهي إقامة الصلاة وتأدية الزكاة والحج إلى هذا البيت الذي يرمز لديانة التوحيد. ويرافق هذه العبادات ملحقات لا تصح إلا بها كالتطهير. وقد أهَّل الله سبحانه وتعالى إبراهيم ليكون نبياً وداعياً إلى الله وإلى عبادته.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: 120ـ122]. ولننظر في آيات القرآن الكريم التي بينت طبيعة عبادة النبي إبراهيم. يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: 35]. فأول العبادة الإخلاص لله وحده والابتعاد عن عبادة الأصنام. إبراهيم النبي يتوجه لله سبحانه بالدعاء أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام. ثم يقول تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37].

إذاً فالغاية من إرسال إبراهيم لابنه قرب البيت الحرام هي إقامة الصلاة باعتبارها الركن الأهم في العقيدة الإسلامية. وهذا يعني تحديداً أن فرض الصلاة كان مطلوباً من إبراهيم أن يؤديه لأنه أمر الله. ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ

مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 125 ـ 126]. فالآية الأولى تشير إلى أن الله جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، وقد جعل الله سبحانه مقام إبراهيم مكاناً للصلاة، ليتبع الناس ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من العبادة. أما الآية الثانية فتوضح كيف أن الله سبحانه عهد إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير البيت، وطهارة البيت جزء من عبادة أو هي مقدمة للعبادة التي يقوم بها الطائفون من الحجاج، والعاكفون في المسجد للتعبد وللركع السجود الذين يقومون بتأدية فريضة الصلاة.

وتوضح الآيات اللاحقة أن غايات بناء البيت الحرام التعرف على هذه الفريضة التي تسمى الحج فإبراهيم وإسماعيل يدعوان الله سبحانه وتعالى أن يريهما مناسكهما. ففريضة الحج التي هي ركن من أركان الإسلام بدأها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: 26 ـ 28]. وعلى ضوء هذه الآيات نرى أن إبراهيم عليه السلام أدى أركان الإسلام التي أقرها الله سبحانه على الموحدين.

فقد عرف كيف يؤمن بالله ويستقيم

وعرف كيف يصلي تنفيذاً لأمر الله عز وجل.

وعرف كيف ينفذ أمر الله ويبني البيت الحرام.

وعرف كيف يطهر هذا البيت للحجاج والعاكفين والركع السجود.

وعرف الحج فريضة فنادى بها الموحدين.

وتربى إسماعيل برعاية من الله سبحانه وتعالى وبرعاية النبوة التي منحت لإبراهيم، فإسماعيل شارك أباه في إعمار البيت الحرام، وهذا يعني أنه عرف الغاية من بناء هذا البيت، وقد اتبع إبراهيم أباه في كل عباداته.

يقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: 54 ـــ 55].

وهذا دليل أخر على أن العبادة التي تعلمها إسماعيل من إبراهيم كانت تتضمن الصلاة والزكاة. فإذا أضفنا ذلك إلى ما ورد عن إبراهيم وجدنا أركان الإسلام متكاملة منذ النبي إبراهيم عليه السلام.. التوحيد. الصلاة. الزكاة. الحج إلى بيت الله الحرام، أما الصيام فهناك إشارة واضحة في القرآن الكريم أن هذه الفريضة فرضها الله على المؤمنين جميعاً منذ بدء التوحيد وحتى بعثة النبي محمد ﷺ يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183].

والأنبياء الذين سبقوا النبي ﷺ هم أولى الناس بالصيام لأنهم رأس الإيمان والمؤمنين الذين سبقوا أمة الإيمان التي بعث لها رسول الله محمد ﷺ.

ونستنتج مما سبق أن التوراة تنفي وجود بيت الله الحرام وبالتالي ليس هناك حج وشعائر وعبادات مرتبطة بهذا البيت.

إن التوراة التي دونت لتاريخ الأنبياء الأوائل أبرزت من خلالهم ومن خلال عباداتهم مرحلة متخلفة في العبادات. فهم عبارة عن عائلة بدوية متنقلة غير ثابتة في مكان محدد. ولهذا التنقل وعدم الثبات دورهما في عدم وضوح عبادات مستقرة، بينما قدم القرآن الكريم منذ البداية في الحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام نظرة متقدمة في العبادات. فهناك مكان ثابت يرمز لعبادة الله الواحد وهو البيت الحرام.

وهناك معالم واضحة لعدة عبادات كالصلاة والحج والزكاة والتطهير وهذه الأسس التي رسخت في زمن إبراهيم استندت عليها عقائد التوحيد بدرجات مختلفة.

وعندما نتصفح حياة الأنبياء الذين بعثهم الله مباشرة بعد إبراهيم وهم إسحق ويعقوب ويوسف ومن كان على دينهم كالأسباط أولاد يعقوب. نرى أن الرابط بينهم وبين إبراهيم هو رابط الإرث النبوي والأبوي. فجميعهم أنبياء اختارهم الله للنبوة ليسيروا على منهج إبراهيم التوحيدي.

وأعتقد أن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا بعيدين عن العبادات التي كان عليها أبوهم إبراهيم. فهم يستلهمون منهجاً متكاملاً في الدين والعبادة على وجه الخصوص.

يقول تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 132 ـ 133].

ويتضح من خلال الآيتين منهج إبراهيم عليه السلام في دعوته لديانة التوحيد فهو لم يحصر العقيدة في شخص، إنما ورّثها لبنية وأحفاده ليتم نشر الدعوة ولا تتوقف.

ويفضح القرآن الكريم كتبة التوراة الذين حالوا أن ينسبوا إبراهيم وإسحق ويعقوب إلى العقيدة اليهودية وبين للناس كافة أن هؤلاء الأنبياء لهم عقيدتهم التوحيدية الخاصة.

وقد أشارت التوراة إلى أن يوسف أمر بتحنيط جثة أبية يعقوب. وأوردت أن أربعين يوماً مضت على التحنيط ثم نقل جثمان يعقوب من مصر إلى سيناء ثم إلى حبرون حيث دفن عند آبائه. وكذلك فعلوا بيوسف مثلما فعلوا بيعقوب أي أنهم حنطوه جرياً على عادة المصريين القدماء.

فهذا يشير بوضوح إلى التأثير الكبير الذي كان عليه بنو إسرائيل أثناء

وجودهم في مصر. والتحنيط عادة متبعة لدى ملوك مصر وأمرائها وكهنتها ولهذا التحنيط دلالته في الديانة المصرية، وله طقوسه.

وحسب كافة المصادر والمكتشفات تبين أن المصريين عندما كانوا يريدون تحنيط أي جثة فإنهم يفرغونها من أحشائها الداخلية إلا القلب ويكسرون الرأس ويسحبون المخ وتجمع هذه الأحشاء في جرار من الفخار. ثم يضعون المواد المحنطة في جثة الميت حيث تحافظ على نفسها مدة زمنية طويلة.

وكان المصريون يعتقدون أن الميت يجب أن يحنط كي يستقبل حياته الأخرى بعد أن يحاسبه إله العالم السفلي حيث يزين قلبه وما فيه من حسنات أو سيئات وحسب ما أوردته التوراة عن ذلك فإنه يدل على دخول لوثة وثنية في عقيدة يوسف وإخوته وهذا ما لم يرد في القرآن الكريم.

وتبدأ المرحلة الثانية بعد انقطاع زمني يدوم حوالي أربعمائة عام. فبنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام يستقرون في أرض جاسان في مصر ولا ندري كيف كانت صلاتهم وصيامهم، وكيف كانت قرابينهم ومعابدهم وكل الذي نعرفه من خلال التوراة أن أرض جاسان أرض مرعى. وهي وافرة الخيرات حيث ناسبت طبيعة بني إسرائيل الرعوية.

غير أن بداية سفر الخروج التي تشير إلى هروب موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل وبعض العبيد المظلومين والمصريين الذين ظلوا على ديانة أخناتون شبه التوحيدية تشير إلى تمرد حصل عدة مرات من قبل هؤلاء في وجه موسى عليه السلام.

وهذا التمرد كان لعدة أسباب وعلى عدة أساليب. فقد تمردوا على عقيدة موسى التوحيدية حينما طلبوا أن يجعل لهم آلهة كما للشعوب التي مروا عليها في سيناء. وقد تمردوا على موسى من أجل المأكل والماء والأمن. ويبدو من خلال هذا السفر أن بني إسرائيل لم يدركوا بعد دعوة النبي موسى ولم يفهموها.

وعندما دخلوا سيناء ومكثوا فيها عشرات السنين كان لا بد أن يظهر على

عقيدتهم تطور ملحوظ ولا سيما في طريقة العبادات والطقوس المرافقة. وهذه السنوات الطوال كانت المحك وكانت الدرس الطويل لتعليمهم شريعة التوحيد أو على الأقل تعليمهم جزءاً من هذه الشريعة وما يحيط بها من عبادات وطقوس وعادات تعبدية.

والواقع أن كافة التشريعات التوراتية الأساسية وجدت في سفر الخروج وسفر اللاويين والعدد والتثنية. وتسمى مع سفر التكوين أسفار موسى الخمسة. وكثير من اليهود لا يعترفون إلا عليها ككتاب مقدس للعقدية اليهودية.

ولكثرة التشريعات الدينية وطقوس العبادة فإننا نرى أن إدراج كل تشريع وكل عبادة في فصلها المقسم في هذا الكتاب يبرزها بشكل أوضح في سياقها. وذلك يجنبنا الوقوع في الخلط بين العبادات والمعاملات الكثيرة والمتنوعة والمتشعبة.

وردت بعض الإشارات عن بعض الصلوات التي قام بها بنو إسرائيل وهي تخلط بين صلاة الشكر وصلاة الخوف من تجليات الرب ولم ترد أي إشارة إلى صلاة تعبدية تقام في مكان محدد وطقس محدد. ففي سفر الخروج الإصحاح الرابع ترد أول إشارة للسجود وهي إشارة سجود الشكر لأن التوراة تقول بأن الرب افتقد بني إسرائيل فأنقذهم من ظلم فرعون.

تقول التوراة: (ولما سمعوا أن الرب افتقد بني إسرائيل وأنه نظر مذلتهم خروا سجداً) خروج 4: 31. وترد إشارات أخرى إلى قيام موسى وهارون بتأدية صلاة محددة ليرفع الله عن المصريين بلاء الضفادع والباعوض وموت السمك في النهر ومرارة مياه الشرب، تقول التوراة: (فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا إلى الرب ليرفع الضفادع فقال موسى لفرعون عيّن لي متى أصلي لأجلك ولأجل عبيدك وشعبك لقطع الضفادع عنك، وعن بيوتك ولكنها تبقى في النهر) خروج 8: 8 ـ 9. وتقول التوراة: (فقال موسى هاأنا أخرج من لدنك وأصلي إلى الرب) خروج 8 ـ 29. وتقول (فخرج موسى من لدن فرعون وصلّى إلى الرب) خروج 8: 30.

وعندما يستقر وضع بني إسرائيل في سيناء يطلب الله من موسى أن يصعدوا إلى الجبل ويسجدوا، تقول التوراة: (وقال لموسى اصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد) خروج 24: 1ـ2.

أما في الإصحاح الثاني والثلاثين فيصنع بنو إسرائيل العجل الذهبي في غياب النبي موسى فتظهر في طقوسهم وعباداتهم سمات الوثنية الواضحة. تقول التوراة: (وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص) الخروج 32: 19. وتعود التوراة لتصف أمر الرب لبني إسرائيل في السجود فتقول: (فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفاً عند باب الخيمة ويتكلم الرب مع موسى ويسجدون كل واحد في باب خيمته) خروج 33: 10.

والواقع أننا لو نظرنا في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة لا نجد معنى لأي صلاة تعبدية لها معالمها الواضحة والدائمة. وكل ما هنالك نرى أن موسى أو بعض بني إسرائيل يقومون ببعض الصلوات لرفع بلاء أو غضب الرب أو لشكر على نعمة إلهية قدمت لهم. ومع ذلك فإن التوراة تركز على أمرين لهما علاقة بالعبادة بشكل عام هما 1ـ السبت 2ـ تابوت العهد وخيمة الاجتماع.

فالسبت يوم للعبادة عند اليهود أو يوم راحة من كافة الأعمال ففي التوراة لم يتضح ماذا يقوم به بنو إسرائيل من عبادات. إنما الذي يتضح هو أمر الرب لهم بأن لا يفعلوا شيئاً في هذا اليوم. فهو يوم للرب لأن النص التوراتي يؤكد حسب زعمه أن الرب استراح في اليوم السابع. وهذا اليوم هو السبت ويجب على اليهود أن لا يعملوا أي عمل فيه. وترد نصوص توراتية تشير إلى أنهم في زمن موسى رجموا رجلاً وهو يحتطب يوم السبت فاعتبروا أنه قد خالف تعاليم الإله. وتدّعي التوراة أن موسى كلم الله فكلّمه الله وأمر برجم الرجل. فرجم الرجل حتى مات.

تقول التوراة: (اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك) خروج 20: 8ـ10. وتقول: (لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك

بارك الرب يوم السبت وقدسه) خروج 20 : 11وتقول التوراة : (ستة أيام يعمل عمل وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدس للرب) الخروج 35 : 2. وكلمة سبت هي في الأصل لغة سامية وأصبحت في العبرية معناها راحة.

وقد بدأ التفكير في يوم السبت على أنه اليوم الذي يترك فيه الإنسان أعماله وأشغاله المادية حتى يستريح وذلك كما قلنا تذكار لليوم السابع في الخليقة ثم تطور التفكير عن يوم السبت حين أمر الله في الوصية الرابعة بحفظ السبت لأن الله بارك يوم السبت وقدسه. وأمر الله أن يستريح الإنسان والحيوان ونزيل البيت في السبت، لا لأنه استراح فيه فحسب بل لأنه باركه وقدسه أيضاً، وعلى هذا فإنه عندما كسر أحد اليهود السبت قتلوه بدون رحمه (عدد 15 : 32 ـ 33).

وقد كان السبت لدى اليهود مَرعياً في أوقات ومُخترَقاً في أوقات أخرى ويرى بعض الباحثين في الشرقيات والحضارات الشرقية أن السبت وتقديسه يعود إلى حفظ البابليين له فقد كانوا يحفظون اليوم السابع والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين من كل شهر مهما كان اسم ذلك اليوم وكانت شريعتهم تقول : (إن الملك لا يأكل اللحم المطبوخ على الفحم في هذه الأيام ولا يغير ثياب جسده. ولا يلبس ثياباً نظيفة، ولا يقدم ذبيحته، ولا يركب في عربة، ولا يتكلم في قضية، ولا يجوز للرائي في هذه الأيام أن يقدم للناس ما يرى، ولا يجوز للطبيب أن يضع يده على جسد إنسان وعند المساء يأتي الملك بتقدماته للآلهة.

ومن خلال التاريخ الكتابي يظهر أن حفظ يوم السبت عند اليهود كان تبعاً لنور أعظم من نور القمر وهو الأمر الإلهي ونور الإعلان السماوي.

ويقول قاموس الكتاب المقدس إن اليهود ظلوا يحفظون يوم السبت بمواظبة حتى تطرفوا في ذلك فحفظوه حفظاً حرفياً أحياناً وخلطوه بعبادات الأوثان أحياناً أخرى فأرسل الله لهم الأنبياء ليرشدوهم إلى حفظ السبت حفظاً روحياً حسب رغبة الله وقد ورد ذلك في الملوك الثاني وعاموس وهوشع وإشعيا وحزقيال.

وفي فترة السبي التي كان قضاها اليهود في بابل نسوا حفظ السبت. فبدأ رجال الله يتشددون على حفظه.

وفي فترة لاحقة انتشرت مجامع اليهود فكانوا يقضون يوم السبت في دراسة الناموس وفي الراحة من أشغالهم العالمية. وقد شددوا في حفظ السبت. وقد تجاوزوا حفظ السبت في الحروب والإبادة لأبناء غيرهم من الأمم والملل.

وفي الفترة الواقعة بين عزرا والمسيح زاد اليهود عدداً من القوانين التقليدية التي يجب حفظها في يوم السبت، تاركين الرحمة والحق التي هي الأمور الرئيسية الواجبة فيه. وعندما بعث المسيح عليه السلام كان موضوع حفظ السبت هو مادة النزاع الأولى بين المسيح وبين شيوخ اليهود فقد أرادوا حفظ اليوم حرفياً كعبيد للسبت بينما علم المسيح أن السبت إنما جعل لأجل الإنسان[1]. وقد ورد أن السيد المسيح عليه السلام كان يبرئ جماعة من المرضى من أسقامهم يوم السبت ـ وهذا غير جائز عند اليهود ـ فأنكرت عليه اليهود ذلك فقال لهم: أخبروني عن الشاة من الغنم إذا وقع في البئر يوم السبت أما تنزلون إليه وتحلون السبت لتخليصه؟ فقالوا بلى. قال فلم أحللتم السبت لتخليص الغنم ولا تحلونها لتخليص الإنسان الذي هو أكبر حرمة من الغنم؟ فأفحمهم ولم يؤمنوا. ويحكون عن السيد المسيح عليه السلام أنه كان مع قوم من تلاميذه في جبل، ولم يحضر الطعام فأذن لهم في تناول الحشيش في يوم السبت فأنكرت عليه اليهود قطع الحشيش (العشب) في يوم السبت. فقال لهم أرأيتم لو أن أحدكم لو كان وحيداً مع قوم على غير ملته وأمروه بقطع النبات في يوم السبت وإلقائه لدوابهم لا ليقصدوا بذلك كسر السبت تجيزونله قطع النبات قالوا: بلى. قال: فإن هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه وليتغذوا به لا للطعن في أمر السبت[2].

وقد ورد في الإنجيل ما نصه: (في ذلك الوقت ذهب يسوع في السبت بين

---

(1) قاموس الكتاب المقدس ص: 453 ـ 454.

(2) غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود. السموأل بن يحيى المغربي. مخطوط.

الزروع فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون. فالفرّيسيون لما نظروا قالوا له: هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله في السبت. فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله ولا للذين معه بل للكهنة فقط أوَما قرأتم في التوراة أن الكهنة في السبت في الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء. ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل فلو علمتم ما هو إني أريد رحمة لا ذبيحة) إنجيل متى 12: 1 ـ 7.

أما في القرآن الكريم فقد ورد الحديث عن السبت في سياق الحديث عن بني إسرائيل الذين خالفوا أوامر التوراة واعتدوا في هذا اليوم على حدود الله أو حدود ما شرعته التوراة لهم.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 65ـ66]. ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: 47].

ويقول تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 154 ـ 155].

ويقول تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: 163].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ

بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل : 124].

وقد جاء في كافة التفاسير أن الحيتان أحلت لهم وحرمت عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ومن يعصيه فكان القوم فيهم ثلاثة أصناف فأما صنف فأمسك ونهى عن المعصية وأما صنف فأمسك عن حرمة الله. وأما صنف فانتهك المعصية ومرن على المعصية فلما أبوا إلا عتواً عما نهاهم الله عنه (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وصاروا يعوون كالكلاب)[1].

وكان ما ذكر من هذه الآية في زمن داود عليه الصلاة والسلام بقرية يقال أيلة على شاطئ البحر الأحمر وهي مرفأ عليه وكان فيها يهود. ويروى أن الله تعالى اختار لهم يوم الجمعة ليكون يوم راحة وعبادة ونظافة، وغير ذلك فأبوا، وقالوا: فرغ ربنا من خلق السموات والأرض يوم الجمعة واستراح يوم السبت، فنحن نختاره لذلك، فشدد الله عليهم بأن حرم عليهم أي عمل دنيوي ما عدا العبادة والنظافة وأمثالها. وكانت معيشة أهل تلك البلدة من صيد الأسماك لا مورد لهم غيره. فابتلاهم الله إي اختبرهم. فما كان يبقى حوت في البحر إلا خرج خرطومه يوم السبت وأقبل نحوهم، فإذا مضى يوم السبت ذهبت الحيتان في أعماق البحر فلم يتمكنوا من الصيد طوال أيام الأسبوع. فظهر لهم الشيطان وقال لهم احفروا أحواضاً قرب البحر وافتحوا جداول بينها وبين البحر، فكانت الحيتان تدخل الحياض يوم السبت ويصطادونها يوم الأحد فنهاهم نبيهم عن فعلهم هذا. فصاروا ثلاث فرق. وكانوا نحو سبعين ألفاً، فرقة أمسكت ونهت وفرقة أمسكت ولم تنه وفرقة اصطادت واعتدت. فهذه هي التي مسخت قردة لها أذناب يتعاوون وقيل مسخ الشباب قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام فقط ثم هلكوا ولم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتوالدوا ونجت الفرقتان الناهية والساكتة عن النهي[2].

---

(1) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة. السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور ص: 147.

(2) محمد طه الدرة تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه ص: 117.

أما بشأن تابوت العهد. فكما أوردت التوراة في سفر الخروج أن الرب أمر موسى بصنع التابوت لتحفظ فيه تعاليم الشريعة التي نزلت على موسى. وقد أصبح منذ ذلك الوقت من الأشياء المهمة والأساسية التي تخص عبادة بني إسرائيل ويبرز أمر الرب لموسى بصنع التابوت في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج.

تقول التوراة: (فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم) خروج 25: 8. وتقول أيضاً: (فيصنعون لي تابوتاً من خشب السنط طوله ذراعان ونصف عرضه ذراع وارتفاعه ذراع ونصف) خروج 25: 10.

ويأخذ سفر الخروج بوصف هذا التابوت الذي أمر الرب أن يصنعه موسى. وتبالغ في الوصف وتدرج أدق التفصيلات في صنعه. ثم يتحدث هذا السفر عن المسكن والخيمة وتعود التوراة إلى وصف أدق الأمور المرتبطة بهما.

ويصبح تابوت العهد علامة لانتصار الرب لبني إسرائيل فهم في حلهم وترحالهم يحملونه معهم. وكذلك تصبح خيمة الاجتماع رمزاً واقعياً لاجتماع بني إسرائيل ليروا تجلّيات الله حسب ما تقول التوراة. تقول التوراة: (وكلم الرب موسى قائلاً: في الشهر الأول في اليوم الأول من الشهر تقيم مسكن خيمة الاجتماع وتضع فيه تابوت الشهادة وتستر التابوت بالحجاب وتدخل المائدة وترتب ترتيبها وتدخل المنارة وتصعد سرجها وتجعل مذبح الذهب للبخور أمام تابوت الشهادة..) خروج 40: 1.

ومن خلال نصوص أسفار موسى الخمسة يتضح أن تابوت العهد رمز لشهادة الله على بني إسرائيل. ويعني هذا أن هذا التابوت متى ضُيِّع فإن الله سينتقم منهم ويعتبرهم خارجين عن عهده. وحسب قول التوراة فإن التابوت يحتوي على الوعاء الذي فيه المنّ وعصا هارون ولوحا العهد وكان عليهما وصايا الله العشر المكتوبة بإصبع الله) خروج 25: 16 و21.

وكما نرى في سفر التثنية أن التوراة وضعت بجانب تابوت العهد. ومن ثم

يسمى التابوت أحياناً تابوت شهادة. ولم يكن وعاء المنّ وعصا هارون في ملك سليمان. وفوق غطاء التابوت ظهر السحاب حيث تراءى الله. وكان في أيام التيه إذا ما رحل العبرانيون في البرية أن التابوت يحمل أمام الشعب ويتقدمه عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً، وكان إذا حمل التابوت يقول: قم يا رب فليتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك. وإذا ما حل التابوت يقول أيضاً: ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل.

وتقول التوراة إنه عندما عبر العبرانيون الأردن حمل التابوت أمامهم إلى المساء وتدعي أن تيار النهر قد انشق فوقفت المياه المنحدرة من فوق وعبر الشعب على اليابسة وقد ورد ذلك في سفر يشوع 3: 14 ـ 17 ثم بقي مدة في الخيمة في الجلجال، وبعد ذلك نقل إلى شيلوه حيث بقي ما بين 30 إلى 40 سنة. ثم أخذ من الخيمة وحمل أمام الجيش فوقع في أيدي الفلسطينيين عندما انهزم بنو إسرائيل بقرب أفيق. فأخذه الفلسطينيون إلى أشدود ووضعوه بجانب صنم داجون.

ثم عندما سكن داود أورشليم نقل التابوت إليها على غاية من التجله والمظاهر الدينية المناسبة فبقي هناك إلى أن بُني الهيكل حسب قول التوراة. ثم وضع التابوت في الهيكل ووضع منسّى تمثالاً منحوتاً في بيت الله وربما أزال التابوت من مكانه حتى يجد له مكاناً. غير أن يوشيا أرجعه وأسماه تابوت القدس ولم يكن التابوت في الهيكل الثاني وقد يكون قد أخذه البابليون من القدس أو اختفى ويوجد تقليد عند الأثيوبيين يفتقر إلى إثبات وهو أن تابوت العهد موجود بأكسوم في أثيوبيا[1].

وقد وردت كلمة تابوت في موضعين من القرآن الكريم مرة في سورة طه وأخرى في سورة البقرة. يقول تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: 38-39]. والتابوت في هذا السياق لا يعني

(1) قاموس الكتاب المقدس ص: 200

تابوت العهد ولا أي تابوت مقدس. وهنا أتت التابوت بمعنى الصندوق المحمي من دخول الماء إليه. ومجيء كلمة تابوت في سياق قصة أم موسى يفتح أمامنا استنتاجاً أو رأياً نقول فيه: أن كلمة تابوت كلمة مصرية وليس لها علاقة بلغة عبرية أو لغة توراتية فاللفظة جاءت متناسبة مع سياق الحال وسياق الواقع الذي تعيش فيه أم موسى وقد عرف المصريون بصنعهم التوابيت الحجرية التي يدفن فيها الموتى بعد تحنيط جثثهم. وباعتبار أن الصندوق المكشوف الذي وضعت أم موسى ابنها فيه يشبه شكل التابوت أطلق عليه الاسم على المجاز.

ومع انتقال بني إسرائيل إلى برية سيناء حملوا معهم كثيراً من تراث المصريين ولغتهم ومن جملة مفردات اللغة التي حملوها معهم مفردة تابوت المصرية وهناك كثير من الدراسات إضافة لبراهين أخرى تقول إن موسى عليه السلام تلقى التوراة باللغة المصرية لأن موسى لم يكن يعرف سوى لغة المصريين لأنه عاش منذ نعومة أظفاره وحتى شبابه بينهم.

إضافة لذلك فإن اللغة العبرية ـ إذا اعتبرناها لغة ـ لم تكن معروفة ولم تكن موجودة زمن النبي موسى عليه السلام.

وفي المحصلة فإن تابوت ـ كلفظة ـ تطورت من المفهوم المحدود وهو تابوت الموتى إلى معنى الصندوق الآمن إلى معنى تابوت العهد أو تابوت الشهادة أي صندوق العهد أو صندوق الشهادة الذي صنعه موسى وبنو إسرائيل في سيناء ووضعوا فيه العصا ووعاء المن ولوحي الحجر اللذين كتبت عليهما وصايا الله لموسى.

أما الآية الثانية التي وردت لفظة تابوت فيها في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 248].

ويتضح من خلال الآية أن التابوت هو نفسه المشار له في التوراة. فهو

الصندوق الذي حفظت فيه بقية من آل موسى وآل هارون والمقصود بالبقية لوحا الشهادة أو بعضهما والعصا المعجزة التي كان لها دور مهم في الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون وسحرته الذين جمعهم من كل حدب وصوب.

لكن الملفت للنظر في العبادات اليهودية أن العلاقات بين اليهود وبين تابوت العهد كانت زمن موسى ترمز إلى علاقاتهم مع ربهم بمعنى أن التابوت ليس هو المقصود بالتعبد.

ومع مرور الزمن وبعد وفاة موسى أصبح هذا التابوت مختلطاً بعبادة الله. ودون وجود هذا التابوت كانت عبادة بني إسرائيل مفقودة أو مشوشة. وهذا ما لمسناه عندما أخذ الفلسطينيون تابوت العهد وظل عندهم حسب قول التوراة مدة طويلة من الزمن. وفي هذه الأثناء تشوّشت عبادة اليهود بل غيبت من قبل الكهنة ذوي المصلحة المادية والبعيدين عن العقيدة كثيراً وهذا ما نجده مبثوثاً بشكل كبير في أسفار التوراة.

لقد عرفنا أن بني إسرائيل مكثوا متشردين في الصحراء عشرات السنين. وانحصرت طقوس عبادتهم ببعض أشكال السجود كما ارتبطت بيوم السبت وتابوت العهد وخيمة الاجتماع. وهذه هي طبيعة العبادة غير المستقرة. أو التي تدل على طبيعة البداوة التي كان عليها بنو إسرائيل. وحسب النص التوراتي دون سواه يتسرب بنو إسرائيل إلى أرض فلسطين بقيادة يشوع ويغزون الأرض يقودهم يهوه في حرب مدمرة للقرى والمدن الكنعانية وكان لتابوت العهد في هذه المرحلة شأن مهم في عبادة بني إسرائيل، فهم يحملونه من مكان إلى آخر. ويعتبرون أن نصرهم مرتبط بهذا التابوت. تقول التوراة (وأمروا الشعب قائلين عندما ترون تابوت عهد الرب إلهكم والكهنة اللاويين حاملين إياه فارتحلوا من أماكنكم وسيروا وراءه) يشوع 3:3.

وتقول: (هوذا تابوت عهد سيد كل الأرض عابر أمامكم في الأردن) يشوع 3:3. ويتكرر الحديث عن تابوت عهد الرب عشرات المرات في سفر يشوع، مما يدل

على أن التحول الذي طرأ هو ربط التابوت بالحرب والغزو وليس ربطه بالعبادة أو لنقل اختلط التقديس لدى بني إسرائيل بهذا التابوت نفسه الذي يرمز للحرب والقتال. ويرد في التوراة أن يشوع رأى رئيس جند الرب فسجد أمامه تعظيماً. ثم قال له اخلع نعلك لأنك واقف في مكان مقدس. وأعتقد أن التقديس جاء بسبب وجود ملاك الرب المحارب على هذه الرقعة إضافة لتقليد عرفه بنو إسرائيل من خلال المكان المقدس الذي وقف فيه النبي موسى ليتلقى كلمات ربه في سيناء. ويتضح من خلال هذا السفر أن بعض جماعات إسرائيل أرادوا بناء معبد للرب بعد أن قسم يشوع الأرض التي احتلت على أسباط بني إسرائيل. تقول التوراة: (وجاءوا إلى دائرة الأردن التي في أرض كنعان وبنى بنو رأوبين وبنو جاد ونصف سبط منسّى هناك مذبحاً على الأردن مذبحاً عظيم المنظر) يشوع 22: 10

ويبدو أن بقية أسباط إسرائيل لم يرضهم هذا الفعل، واعتبروه خروجاً على عقيدتهم وعلى عبادة الرب فأرادوا محاربة السبطين والنصف. لو لا أن بني جاد وبني رأوبين أوضحوا لهم أن هذا المعبد ليس خروجاً على العقيدة إنما هو شاهد على اتفاق يجري بينهم وبين بقية الأسباط.

تقول التوراة: (فلما سمع بنو إسرائيل اجتمعت كل جماعة بني إسرائيل في شيلوه لكي يصعدوا إليهم للحرب) يشوع 22: 12. وتقول (ما هذه الخيانة التي خنتم بها إله إسرائيل بالرجوع اليوم عن الرب ببنيانكم لأنفسكم مذبحاً لتتمردوا اليوم على الرب) يشوع 22: 16.

وتبرز عادة نصب الحجارة في عبادة بني إسرائيل كما رأيناها في زمن يعقوب عليه السلام. وكانت هذه العادة ترتبط بقطع العهود بين بني إسرائيل والرب تقول التوراة: (وأخذ حجراً كبيراً ونصبه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس الرب ثم قال يشوع لجميع الشعب. إن هذا الحجر يكون شاهداً علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذي كلمنا به فيكون شاهداً عليكم لئلا تجحدوا إلهكم) يشوع 24: 26-27.

وتبدأ مرحلة جديدة في طقوس عبادة بني إسرائيل بعد موت يشوع

واستقرارهم في أرض فلسطين. وفي هذا الإطار لا بد أن نلاحظ أن تسرب بني إسرائيل إلى فلسطين يعني تسرب البدو الرحل إلى الحالة الزراعية والحضارية التي كان عليها العرب الكنعانيون وهذا يعني أن ذلك كان بداية حقيقية للتأثر السريع بطقوس الكنعانيين وعبادتهم مع العلم أن عبادة الكنعانيين كانت على الغالب عبادة وثنية لها شعائرها وطقوسها المختلفة عن ديانة التوحيد.

وبدءاً من الإصحاح الثاني في سفر القضاء راح بنو إسرائيل يتمثلون عبادة أهل الأرض وكما نصت التوراة فإنهم عبدوا البعليم، (وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب) قضاة 2: 12.

وتقول التوراة: (وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها) القضاة 2: 19.

ويرد في هذا السفر أن بني إسرائيل عبدوا البعليم والسواري. وعبدوا ملك آرام المدعو كوشان رشعتايم والسارية التي تجمع على سواري ورد ذكرها في سفر أشعياء على أنها علامة أو دليل منصوب على مكان مرتفع حتى يراه المسافرون والسائحون للإرشاد إلى طريق أو التحذير منه. وكانت السواري تنصب على الأماكن المرتفعة حتى يجتمع الناس حولها للعبادة البعلية الوثنية. وقد اعتاد الملوك المنحرفون عن عبادة الرب إقامة تلك المرتفعات لعبادة الأصنام. وقد أظهر البحث الحديث أن الكلمة العبرية (أشيرة) تشير إما إلى إلهة كما ورد في سفر القضاة 3: 7 أو تشير إلى السارية الخشبية التي كانت تقام نصباً رمزاً إلى هذه الآلهة. وقد ذكرت هذه الآلهة في لوحات أو غاريت التي اكتشفت في رأس شمرا[1].

وقد عبد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثماني عشر سنة. مثلما عبدوا ملك آرام.

ولم تتضح طبيعة الطقوس التعبدية التي ارتبطت بعبادة الملوك. وأعتقد أن بني إسرائيل كانوا من الجماعات السريعة التقلب في عبادتهم، ولا شك أنهم في

---

(1) قاموس الكتاب المقدس ص: 466.

تقلبهم كانوا سريعي التأثر بعقائد الشعوب وعبادتها وطقوس هذه العبادة. وحسب أسفار التوراة فإن سفر صموئيل الأول وصموئيل الثاني يفصحان عن نوع من التطور في طقوس عبادة بني إسرائيل. حيث بدا أن نوعاً من الاستقرار قد عايشوه. ولا شك أن هذا الاستقرار النسبي يعطي قابلية التأثر من قبل بني إسرائيل بعبادات الكنعانيين وطقوسهم من جانب ويمنحهم نظرة متطورة عن سابقتها حول طبيعة العلاقة بين الإنسان والإله.

وحسب ما تفصح عنه نصوص التوراة فإن بني إسرائيل وضعوا تابوت العهد في قرية يقال لها شلوه وقد منحوا بعض الكهنة صلاحيات الإشراف عليه. ويبدو أنهم وضعوه في بناء محدد وأطلقوا عليه اسم بيت الرب. وبهذا المعنى فقد استقر تابوت عهد الرب في مكان محدد ولو لفترة زمنية طويلة واحدة.

تورد التوراة أن الإنسان بدأ يلجأ إلى هذا البيت ويصلي ويسجد ويقدم النذور تقول التوراة: (فصلّت إلى الرب وبكت بكاء ونذرت نذراً وقالت يا رب الجنود إن نظرت نظراً إلى مذلة أمتك وذكرتني ولم تنس أمتك بل أعطيت أمتك زرع بشر فإني أعطيه للرب كل أيام حياته ولا يعلو رأسه موسى) صموئيل 1: 10 ـ 11 ثم تقول: (وبكروا في الصباح وسجدوا أمام الرب) صموئيل 11: 19.

ومن خلال ذلك يتضح أن الصلاة للرب يقصد بها الصلاة أمام تابوت العهد الذي يرمز إلى الرب. وكما قلنا فإن لهذا التابوت مكان حددته التوراة في أرض شلوة.

ويذكر سفر صموئيل أن المرأة التي صلت للرب كي يهبها غلاماً وهبت هذا الغلام لعبادة الرب. وقد دعت ربها عندما جاءت أول مرة إن هو منحها ابناً سوف تهبه له. وتذكر التوراة أنها وهبته لبيت الرب طوال حياته. ويتضح ذلك من خلال الإصحاح الثاني في سفر صموئيل الأول بعض ما قالته المرأة في صلاتها المتجهة بها إلى ربها.

تقول التوراة: (فصلّت حنة وقالت فرح قلبي بالرب ارتفع قرني بالرب.

اتسع فمي على أعدائي لأني قد ابتهجت بخلاصك. ليس قدوس مثل الرب. لأنه ليس غيرك وليس صخرة مثل إلهنا. وتستطرد قائلة في صلاتها. حتى أن العاقر ولدت سبعة وكثيرة البنين ذبلت. الرب يميت ويحيي يُهبط إلى الهاوية ويُصعد الرب يفقر ويغني. يَضع ويرفع. يُقيم المسكين من التراب...) صموئيل 2: 1 و3-5-6-7-8

وهذا الكلام ليس سوى تمجيد للرب ودعاء أثناء الصلاة. وليس هو كلاماً تعبدياً فرضته الشريعة اليهودية أو فرضه الكهنة. وليس هو مما يقال في صلوات اليهود. وتذكرنا هذه الصلوات وهذا الكلام بعدة حوادث مشابهة أشار لها القرآن الكريم وأشارت لها التوراة نفسها في مواقع أخرى كإشارتها إلى قصة عقم سارة زوجة النبي إبراهيم عليه السلام وعقم زوجة إسحق.

أما القرآن الكريم فيشير إلى قصة أم مريم والدة السيد المسيح عليه السلام وكذلك إلى قصة عقم زوجة النبي زكريا عليه السلام. لكن الذي يلفت النظر في التشابه بين القصص أن والدة مريم وهبت ما في بطنها لله وقد أنجبت مريم. ودعت الأم ربها أن يحفظ ما في رحمها وذريتها من الشيطان. يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 35-37].

ويبرز من خلال الإصحاح الرابع من سفر صموئيل الأول تعلق بني إسرائيل بتابوت العهد حيث دمجوا بين هذا التابوت وبين الله كما تحدثنا عن ذلك سابقاً.

تقول التوراة: فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب

الجنود الجالس على الكروبيم.

ويتضح أن بني إسرائيل استخدموا هذا التابوت ليكون لهم عوناً على خوض الحرب ضد الفلسطينيين وتفصح التوراة على ذلك حين تصف الفلسطينيين بأنهم ارتعبوا عندما سمعوا هتاف بني إسرائيل وصراخهم بسبب وجود تابوت الرب بينهم.

وقد اعتبر بنو إسرائيل تابوت العهد كالسحر يفعل فعله إذا كان بينهم فلذلك نجدهم ينوحون ويبكون ويضعفون.

تقول التوراة: وناح كل بيت إسرائيل وراء الرب واضطروا للذهاب إلى صموئيل ليدعو لهم الرب كي ينصرهم ويعيد لهم تابوت العهد.

ويظهر الصوم لأول مرة لفظاً في التوراة حيث تصرح أنهم عندما ذهبوا إلى صموئيل طلب منهم نزع التماثيل الرامزة للآلهة الوثنية ففعلوا ثم صاموا. تقول التوراة: (فاجتمعوا إلى الصفاة واستقوا ماء وسكبوه أمام الرب وصاموا في ذلك اليوم وقالوا هناك قد أخطأنا إلى الرب) صموئيل 7: 6. والواقع أنه لم يرد الصوم لفظاً في أسفار موسى الخمسة ولكن كان يوم واحد معين للصوم وهو يوم الكفارة الذي ورد ذكره في سفر اللاويين 16 ـ 29 و23: 27 وفي سفر العدد 29: 7. إذ كان المقصود بتذليل النفس في هذه الآية هو الصوم كما ذهب الكثيرون[1].

ويرد في نفس السفر أيضاً أن جماعة من بني إسرائيل قد صاموا سبعة أيام بعد أن أخذوا جثة شاؤل ملك إسرائيل الذي قتل هو وأولاده الثلاثة في معركة جبل جلبوع تقول التوراة: وأخذوا جسد شاؤل وأجساد بنيه عن سور بيت شان وجاءوا بها إلى يابش وأحرقوها هناك وأخذوا عظامهم ودفنوها تحت الأثلة في يابش وصاموا سبعة أيام) صموئيل الأول 31: 12 ـ 13. ومنذ ظهور النبي داود على ساحة الأحداث في سفر صموئيل تبدأ مرحلة جديدة من مراحل عبادة بني إسرائيل.

---

(1) قاموس الكتاب المقدس صفحة 563.

تظهر في البداية عادة المسح حيث يقصد بها أن أحد الكهنة يمسح الملك أو النبي لينصّب في ملكة أو رئاسته النبوية. تقول التوراة: (وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكاً على بيت يهوذا) صموئيل 22: 4.

ثم يرد (وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك إلى حبرون فقطع الملك داود معهم عهداً في حبرون أمام الرب ملكاً على إسرائيل) صموئيل 3:5 وتبدأ ملامح جديدة للعبادة في بني إسرائيل حيث تتضح معالم الملك والنبوة لدى داود عليه السلام.

يعيد داود تابوت العهد كأول عمل تعبدي يقوم به حيث أن العبادة الإسرائيلية لا تكتمل إلا بوجود هذا التابوت. تقول التوراة: (فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عوبيد أدوم إلى مدينة داود بفرح. وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات يذبح ثوراً وعجلاً معلوفاً. وحسب قول التوراة: (كان داود يرقص بكل قوته أمام الرب، وكان داود متنمطقاً بأفود من كتان) صموئيل 62: 12 ـ 14 ومنذ الإصحاح السابع تبرز فكرة بناء بيت للرب حيث يأتي الوحي للنبي ناثان ويقول له بأن يخبر داود كي يبني بيتاً له.

ويهيء داود كل ما يلزم لبناء بيت الرب فأقام نحاتين لنحت الحجارة المربعة وهيأ الحديد والمسامير والنحاس وخشب الأرز. ولكنه حسب قول التوراة يوصي ابنه سليمان لبناء معبد للرب لأنه قد منع من ذلك بسبب سفكه للدماء الكثيرة حسب قول التوراة. تقول التوراة: فكان إليّ كلام الرب قائلاً قد سفكت دماً كثيراً وعملت حروباً عظيمة فلا تبني بيتاً لاسمي لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامي هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحهُ من جميع أعدائه حواليه لأن اسمه يكون سليمان فاجعل سلاماً وسكينة في إسرائيل في أيامه) أخبار الأيام الأول 22: 98

وبعد أن يتم سليمان بناء المعبد ينقل إليه تابوت العهد وخيمة الاجتماع ويضعه في محراب المعبد. وأول صلاة تقام في هذا المعبد يؤديها سليمان حيث تقول التوراة: (ووقف عليه جثا على ركبتيه تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه نحو السماء . . و تقول في نفس الإصحاح وفي نفس الصلاة التي أداها سليمان

(فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهي واسمع الصراخ والصلاة التي يصليها عبدك أمامك) أخبار الأيام الثاني 6: 13 و19

وتبين التوراة على لسان سليمان الغاية من إقامة المعبد فتقول: فكل صلاة وكل تضرع تكون من أي إنسان كان أو من كل شعبك إسرائيل الذين يعرفون كل واحد ضربته ووجعه فيبسط يديه نحو هذا البيت) أخبار الأيام الثاني 6: 29 وتقول التوراة: (ولما انتهى سليمان من الصلاة نزلت النار من السماء وأكلت المحرقة والذبائح وملأ مجد الرب البيت) أخبار الأيام الثاني 7: 1 ـ 2.

ومن أهم ما يرتبط ببيت الرب من عبادات وجود المذبح الذي كان عبارة عن صندوق من الخشب الثمين مربع الحجم ومغطى بالنحاس وكانت النار تشعل على رأسه وعلى جانبها وضعت أوعية للغسل وهي من النحاس ليتطهر بها الكهنة والذبائح. وكان لا يسمح بدخول أحد غير رئيس الكهنة إلى الجانب المقدس المخصص له. وقد تحدث القرآن الكريم عن النبي داود والنبي سليمان عليهما السلام. فداود عليه السلام صاحب كتاب الزبور كما أشار لذلك القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: 55].

ويشير القرآن الكريم إلى أن داود كان مسبِّحاً لله وسخّر له الطير والجبال يسبِّحن معه. يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 80] ويصفه القرآن الكريم بأنه أوّاب. فيقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: 18] ويصفه أنه يستغفر ربه ويخرُّ ساجداً داعياً الله ليغفر له، يقول تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: 24] وقد وصف سليمان عليه السلام بأنه أوّاب، ويطلب الغفران من الله. ويشكره على ما أنعم عليه من الملك والنبوة. يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: 35 ـ 36].

وقد أشار القرآن الكريم إلى المحراب عند الحديث عن داود عليه السلام كما أشار إلى المحاريب عند الحديث عن سليمان. يقول تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ [سبأ: 14] وهذا ما يشير إلى علاقة ما بين المحراب والصلاة والتعبد.

وكذا فإن الأنبياء كانوا يصلون ويتعبدون ويستغفرون وينيبون ويشكرون الله على ما آتاهم.

وبموت النبي سليمان عليه السلام تنتهي مرحلة أخرى من مراحل عبادة بني إسرائيل حيث يتوالى على الملك عدد كبير من الأشخاص حيث تنقسم مملكة سليمان وتتشرذم حتى مجيء البابليين بحملات قتالية تقضي على بيت الرب وعلى كثير من معالم الديانة اليهودية، وبسبب الضعف العقيدي والسياسي لليهود بدأت تقلبات العبادة وتلونها.

وتدل هذه المرحلة على عدم ثبات عقيدة التوحيد لدى أتباع اليهودية. وبالتالي على عدم ثبات العبادة.

بدأ التحول عن العبادة في زمن رحبعام، وأول عمل قام به رفضه للكهنة من اللاويين أن يكهنوا للرب. تقول التوراة: لأن يربعام وبنيه رفضوهم من أن يكهنوا للرب وأقام لنفسه كهنة للمرتفعات وللتيوس وللعجول التي عمل) أخبار الأيام الثاني 11: 14 ـ 15.

وحينما ملك آحاز على بني إسرائيل سار في طريق ملوك بني إسرائيل وعمل أيضاً تماثيل مسبوكة للبعليم. وهو أوقد في وادي ابن هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم . . وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء) أخبار الأيام الثاني 28:3ـ5.

ثم في زمن حزقيا أعاد بنو إسرائيل عبادة الرب (وقاموا وأزالوا المذابح التي في أورشليم وأزالوا كل مذابح التبخير وطرحوها في وادي قدرون وذبحوا الفصح في الرابع عشر من الشهر الثاني والكهنة واللاويون خجلوا وتقدسوا وأدخلوا المحرقات إلى

بيت الرب) أخبار الأيام الثاني 30 : 14 ـ 15 . وأقام حزقيا فرق الكهنة واللاويين حسب أقسامهم كل واحد حسب خدمته الكهنة واللاويين للمحروقات وذبائح السلامة للخدمة والحمد والتسبيح في أبواب محلات الرب) أخبار الأيام الثاني 31 : 2

ويلجأ حزقيا إلى الصلاة عندما تهاجم أورشليم حسب قول التوراة : (فصلى حزقيا وإشعيا بن آموص النبي وصرخا إلى السماء) أخبار الأيام الثاني 32 : 20 . وهذه الصلاة صلاة خوف واستنجاد . وصلى حزقيا للرب صلاة دعاء للشفاء (وفي تلك الأيام مرض حزقيا إلى حد الموت وصلى إلى الرب فكلمه وأعطاه علامة) أخبار الأحبار الثاني 32 : 24 .

ثم يملك ابنه منسّى الذي رفض عبادة الرب وعبد الأصنام . تقول التوراة : وأقام مذابح للبعليم وعمل سواري وسجد لكل جند السماء وعبدها وبنى مذابح في بيت الرب الذي قال عنه الرب في أورشليم يكون إسمي إلى الأبد وبنى مذابح لكل جند السماء في داري بيت الرب . وعبر بنيه في النار في وادي ابن هنوم وعاف وتفاءل وسمر واستخدم جانا وتابعة وأكثر عمل الشر في عيني الرب لإغاظته) أخبار الأيام الثاني 33 : 3 ـ 6 .

وتقلبت شعائر العبادة لدى بني إسرائيل مع تقلب الوضع السياسي لمن تسميهم التوراة الملوك الذين حكموا مملكتي يهوذا وإسرائيل . إلى أن بدأت مرحلة جديدة وهي مرحلة السبي البابلي التي تميزت بوجود عدد من أنبياء التوراة الذين حاولوا إصلاح أوضاع اليهود المسبيين .

ويؤخذ بعين الاعتبار أن مرحلة السبي دامت حوالي سبعين عاماً استُعبد اليهود فيها في أول عهدهم بها وتأثروا بالأفكار البابلية وعقائدها وحتى شعائرها . وبدا أن مفاهيم جديدة طرأت على العبادات باعتبار أن العقيدة بحد ذاتها تأثرت كثيراً بعقيدة الوثنيين البابليين .

ويرجح كثير من الباحثين والمؤرخين أن اليهود استفادوا جداً من التشريعات

البابلية وخاصة تشريع حمورابي، حيث قارنوا بين الوصايا العشر التي وردت في التوراة وبين ما جاء في تشريعات حمورابي إضافة لما استفادوه في القوانين الحياتية التي تتضمن المعاملات البشرية من زراعة وتجارة وصناعة وما إلى ذلك.

والجدير ذكره أن عدداً من الأنبياء اليهود الذين لم يرد ذكرهم في القرآن الكريم كانوا قد عاصروا فترة السبي. وأهم هؤلاء النبي أرميا والنبي حزقيال. والنبي دانيال. مع آخرين من أنبياء التوراة الذين أُطلق عليهم الرائين وجدوا أيضاً في فترة السبي البابلي.

وعندما نطالع أسفار هؤلاء والفترة الزمنية التي قضاها اليهود في السبي نرى أنهم دوماً يحتجون على مواقف اليهود الدينية. وقد هاجموا جميعاً انحراف اليهود وأقذعوا في الهجوم. وحاولوا إصلاح العقيدة والمعتقدات وتناولوا العبادات مما جعل الباحثين يرون تطوراً ملحوظاً فيها وفي غاياتها.

إن ما يُلاحظ بداية أن القرابين والتقدمات التي كان يقدمها بنو إسرائيل قبل السبي بطُل استخدامها. ووضعت الصلوات بدلاً منها وظلت هكذا إلى هذا اليوم عند كثير من الفرق اليهودية. ويرى بعض الباحثين أن هذه العبادات بالصلوات تفوق كثيراً العبادات القديمة بالذبائح والتقدمات.

ولا شك أن التقدمات والقرابين فقدت، باعتبار أن بني إسرائيل أصبحوا مسخّرين عبيداً لا حول لهم ولا قوة، ولا يملكون أي شيء يقدمونه للرب، ففاقد الشيء لا يعطيه وهذا ما يعلل سبب لجوئهم إلى الصلاة، إذ أنها لا تكلفهم المال ولا التعب. وهي على الغالب صلاة تحتاج لبعض الألفاظ والنصوص التي وردت في التوراة إضافة للنصوص التي يكتبها أنبياء السبي وزعماء الدين اليهودي.

يقول الدكتور حسن ظاظا (فإن العبادات بالتقدمات هي عبارة عن تقدمة شيء من مال الإنسان. أي مادة حسية أرضية على مذبح مادي بخلاف العبادة الروحية بالصلوات فإنها إظهار عواطف وإحساسات، وتقدمة شكر روحية

صادرة من نفس الإنسان على مذبح قلبه وعقله وشهواته الجسدية[1].

ولدى هؤلاء الأنبياء مقالات تشير بوضوح إلى تغير مفهوم القرابين المادية إلى قرابين كلامية وروحية.

جاء في التوراة: (إرجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بإثمك. خذوا معكم كلاماً وارجعوا إلى الرب. قولوا له إرفع كل إثم وأقبل حسناً فنقدم عجول شفاهنا) هوشع 14: 1 ـ 2.

وجملة عجول شفاهنا تعني أن لا تقدمة بالعجول وذبحها بل هناك تقدمة بالقول والدعاء التي شبهها النبي هوشع بالقرابين.

وقد أدان أشعيا صلوات بني إسرائيل وطقوسهم لأنهم ينافقون وأيديهم ملوثة بالدم فلن تُقبل منهم صلاة ولا عبادة.

جاء في التوراة: (وعندما تبسطون أيديكم سأخفي عينيّ عنكم، وتتلون الصلوات الكثيرة لن أسمعها. أيديكم مليئة بالدم) أشعيا 1: 15

وبما أن الكهنة يبسطون أيديهم لمباركة الناس أثناء الصلاة يفسرونها بأن الكاهن الذي يرتكب جريمة قتل بالصدفة لا يصبح مؤهلاً لبسط يديه للتبريك حتى مع التوبة لأنها مليئة بالدم)[1].

وحاول أحبار اليهود جمع ما علق في أذهان اليهود من التوراة فجمعوا ما جمعوا وزادوا وحذفوا ما لا يعجبهم. وقد راحوا يعملون على كتابة كتاب جديد ينظم حياتهم بكل جزئياتها فخرج معهم التلمود الذي نلمس فيه أن مفهوم الصلاة أصبح ذا شكل قانوني. واستقر الوضع اليهودي على خلق ثلاث صلوات في أوقات محددة. في الصباح والظهيرة وبعد المغرب.

وقد فرض عليهم أن يتجهوا أثناء الصلاة إلى القدس باعتبارها جمعت بين

---

(1) د: حسن ظاظا. الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه صفحة 142 نقلاً عن المشنا (البركات 32)

(1) إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود ترجمة حسن خضر ص61

الرمز الديني والرمز السياسي لليهود.

وقد أخذ التفكير بالمعبد جل اهتمام أنبياء السبي من بني إسرائيل حتى صار لديهم معبداً مثالياً قد لا يكون في الواقع الأرضي نظيره. وقد ركز كاتبوا التوراة على حث اليهود أن يظلوا متعلقين نفسياً وعقيدياً بهذا المعبد.

وقد ظهر في هذه الفترة أي فترة السبي ما يسمى بالقانون الكهنوتي. ويرى كثيرون أن ذلك يعكس تطلعات كهنة القدس والأنبياء الذين كانوا قريبين منهم فيما بعد في مرحلة الأسر أو السبي. وقد شمل القانون الكهنوتي كل مناحي الحياة الاجتماعية تقريباً. فاندرجت ضمنه فرائض حقوقية وأخلاقية وفرائض بخصوص النظافة وفرائض طبية وطعامية وكذلك صيغ سحرية وابتهالات ولعنات. وكل ذلك مصور وكأنه إرادة ـ يهوه ـ التي سيكونون هم ـ كهنة معبد يهوه المقبل ـ منفذين ومفسرين لها.

وقد ركزت التوراة في هذه المرحلة على إبراز المعبد على لسان أنبيائهم مثل حزقيال وقد كان من المهم بالنسبة لأنصار يهوه عدم إضاعة رعيتهم. فلم يكن لدى اليهوديين في بابل ذلك المركز الديني الذي يوحدهم. ولذلك كان الدور الذي يجب أن تمارسه الطقوس دوراً كبير. وهذا هو السبب الذي يجعل نبياً كحزقيال يتميز عن الأنبياء القدامى بكون الواجبات الطقوسية لديه لا تقل أهمية عن الواجبات الأخلاقية فالختان بالنسبة له رمز القداسة. والسبت علامة يهوه والشعب المختار (20:12ـ24) وكان الالتزام بتطبيق هذه الخصائص الطقوسية وغيرها من خصائص الديانة اليهودية معنياً بأن يؤدي دوراً معيناً في عزل اليهوديين)[1].

ولا شك أن اطلاع اليهود المسبيين على معابد البابليين أفادهم جداً في تصوراتهم حول المعبد الذي يتمنون بناءه، وهذا أيضاً يرتبط بتصوراتهم حول الإله، حيث أن تطوراً ملحوظا طرأ على ذلك التصور. فالإله حتى يكون الأكبر فهو الخالق

---

(1) م. ريجسكي. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ترجمة آحو يوسف صفحة 187 ـ 188.

الأعظم من كل آلهة البابليين ومن الإله (مردوخ) كبير آلهة البابليين. فالله يصبح في نظر أنبياء السبي رب السماوات والأرض والخالق العظيم وليس فقط إله بني إسرائيل وطالما أن الإله في عقيدتهم بهذا الشمول والاتساع فإن من مستلزماته أن يكون المعبد الرئيسي له يناسبه ويناسب عبادته. ولهذا كان تصورهم نحو المعبد الذي سيبنونه أكبر وأضخم من المعبد القديم الذي يطلقون عليه الهيكل.

ونرى أن بني إسرائيل وعلى رأسهم الأنبياء في زمن السبي أسسوا لمستقبل نظري وعملي عبادي ليكونوا مهيئين للمعبد الجديد الذي سيقام.

وتعتبر مرحلة السبي مرحلة تقنين العبادات أي وضع القوانين الزمنية والطقوسية لها بعد أن كانت في المراحل السابقة عبارة عن دعوات صلاتية وطقوس يقوم بها اليهودي متى شاء وحسب حاجته وفي أي مكان.

ولا شك أن كتابة التلمود بقسميه لعب دوراً أساسياً في توضيح كافة مواقيت العبادات والأعياد وقوانين التعامل الإنسانية وغيرها.

وعند السماح لليهود بالذهاب إلى فلسطين زمن الملك الفارسي كورش والذي قضى على الدولة البابلية راحوا يعملون لبناء معبد جديد تحت الحماية الفارسية. وظلوا عشرين سنة حتى تمكنوا من بناء المعبد، ولكن يبدو أن تصوراتهم خابت لأن المعبد الذي شيدوه كان ممسوخاً إلى درجة كبيرة جداً.

قبل ميلاد السيد المسيح بـ 539 عاماً استطاع الفرس الانتصار على البابليين وراحوا يحتلون البلاد حتى وصلوا إلى سورية وفلسطين. وقد كان الأسرى اليهود من بين الرعايا الذين ساعدوا الفرس في القضاء على البابليين. وقد ورد في سفر أستير ما يشير إلى أن اليهود قاموا بمذابح جماعية بحق البابليين وبإشراف الفرس أنفسهم وقد طلب بعض اليهود أن يسمح لهم الفرس بالذهاب إلى فلسطين لاحتلالها مرة أخرى وسمح لهم كورش الفارسي بالذهاب، وتشير بعض الدراسات التاريخية أن كورش أعاد إليهم كنوز ما يسمى الهيكل التي كان قد

استولى عليها نبوخذ نصر. وأمر كورش بإعادة بناء ما يسمى الهيكل في القدس. فعاد فريق من اليهود ويرجح المؤرخون أن الذين رجعوا انحصروا في أولئك الذين لم يفلحوا كثيراً في الأرض الجديدة والمتعصبون لإعادة ما يسمى الهيكل لأن الدلائل تشير أن هناك عدداً غير قليل أصاب النجاح في بلاد بابل أثرى حتى أصبح لديه الكثير من الممتلكات فآثر البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير[1].

وقد عين حاكم على الجالية اليهودية التي هاجرت إلى فلسطين شخص يدعى زربابل. وهو من بدأ ببناء الهيكل إلا أن الأقوام العربية الساكنة في فلسطين وسورية رفضت السماح لليهود بإقامة هذا الهيكل فأصدر (سمريدس) الذي خلف الملك الفارسي قمبيز الثاني أمراً بإيقاف عملية البناء. ولكن دارا الأول سمح لهم فأتموا البناء بعد حوالي عشرين عاماً.

وكان كورش قد تزوج بإستير اليهودية وسمح لليهود بتدوين التوراة التي بين أيدينا. ومارسوا شعائرهم الدينية بحرية بعد أن تجمعوا في القدس تحت إشراف الفرس.

وقد وجد أنبياء توراتيون في هذه الفترة هم حجي وزكريا ويوئيل وعوبيديا. ولهم أسفار في التوراة تتحدث عن مرحلة ما بعد السبي. وتظهر هذه المرحلة مرحلة قلق عقيدي. فالعبادات ما زالت ملوثة بالوثنية، وما تزال آثار السبي تنعكس على نفسية الكهنة وبقية أتباع اليهودية.

وقد حدثت نزاعات دينية بين الوثنيين اليهود وبين من اتبعوا الكهنة وتعاليم يهوه وقد تبين أن بعض اليهود يقومون بتقديم القرابين على مذبح يهوه، وفي نفس الوقت يرتبون الموائد للإلهين الوثنيين (جاد، ومني) ويقدمون ضحايا في الغابات ويأكلون لحم الخنزير. وقد احتج أنبياء التوراة في هذه الفترة على بني قومهم الذين تركهم نبوخذ نصر في بعض أجزاء فلسطين وقد أصيبوا بعدوى الوثنية إصابة عميقة[2].

---

(1) د: أحمد سوسة العرب واليهود في التاريخ صفحة 674.
(2) أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية صفحة 203 ـ 204.

وقد أحيا اليهود المتبقون في بعض مناطق فلسطين المقادس المحلية في الغابات وعلى الجبال. وراح الناس يقدمون القرابين ليس فقط ليهوه بل وللآلهة الوثنية القديمة (بعل ـ وجاد ـ ومنّي). وقد شهد الكهنة الراجعون من السبي نضالاً حاسماً ضد ذلك الإنحراف عن عبادة يهوه. ولكن يبدو أنه من الصعب إيقاف هذا التحول وقد ألح أشعيا الثالث وهو من أنبياء هذه الفترة التوراتية على العبادة وفروضها وحتى يستطيع أشعيا أن يكسب الناس إلى عبادة يهوه فقد شرّع أن من يريد من أبناء الشعوب خدمة معبد يهوه فإن الرب يقبله حتى لو لم يكن يهودياً.

جاء في التوراة: (فلا يتكلم ابن الغريب الذي اقترن بالرب قائلاً إفرازاً أفرزني الرب من شعبه. ولا يقل الخصيّ ها أنا شجرة يابسة. لأنه هكذا قال الرب للخصيان الذين يحفظون سبوتي، ويختارون ما يسرني ويتمسكون بعهدي. إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصباً واسماً أفضل من البنين والبنات. أعطيهم اسماً أبدياً لا ينقطع وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيداً كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرّحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولةً على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب) أشعياء 65: 3 ـ 8.

وباتساع أفق بعض الأنبياء طرحوا مسألة المعبد المادي والمعبد المعنوي. فبعد أن ركزت التوراة على الهيكل هو بيت سكن للرب طرح أشعيا الثالث أن يهوه ليس بحاجة إلى المعبد (هكذا قال يهوه السموات كرسيي والأرض موطئ قدمي أين المكان الذي تبنون لي وأين مكان راحتي) أشعياء 66 : 1 كما أن الرب ليس بحاجة إلى صلاة أو صيام (طالما أنكم في يوم صومكم توجدون مسرة بكل أشغالكم تسخرون).

والصيام عند أشعياء هو معونة المساكين والفقراء (فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائز خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك حينئذ) أشعيا 58: 3ـ 6ـ 7 فالفرائض الطقسية لدى أشعيا الثالث لا تقل أهمية عن المتطلبات

الأخلاقية. والجانب الطقوسي في ديانة يهوه يبدأ ـ اعتباراً من أيام السبي ـ بأداء دور متزايد الأهمية وقد عكس الجانب الكهنوتي الفرائض الطقوسية في صيغة تهديدات ومواعظ صادرة عن لسان الإله[1]. وقد تبين أن مهمة الكهنة والأنبياء في هذه الفترة كانت بناء المعبد في القدس.

وقد حاول أنبياء التوراة الحض على الإسراع ببناء المعبد ولكنهم فشلوا حيث ظل العمل به بطيئاً، وبعد أن تم بناء المعبد أصبح الكهنة عالة على العبادة والطقوس وعلى الناس. وقد تحولوا إلى فئة من الموظفين. فلم يكونوا ينفذون الواجبات الطقوسية في المعبد ويأخذون من الناس الأعشار لأجل أنفسهم وحسب. بل ويمارسون الوظائف ويجمعون الإتاوة لأجل الفرس[2].

وقد أقرت التوراة في سفر ملاخي أن عبادة بني إسرائيل قد أصبحت نجاسة للإله ومعبده. تقول (فإن كنت أنا أباً فأين كرامتي وإن كنت يهوه فأين هيبتي قال لكم يهوه رب الجنود أيها الكهنة المحتقرون اسمي وتقولون بم احتقرنا اسمك) ملاخي 1:6 تقربون خبزاً نجساً على مذبحي وتقولون بم نجسناك بقولكم إن مائدة يهوه محتقره) ملاخي 1 : 7. فالكهنة إذ لا يكتفون بتقديم الخبز النجس طعاماً للإله بل ويقربون حيوانات فيها عيوب ومعطوبة (وإن قربتم الأعرج والسقيم أفليس ذلك شراً قرّبة لواليك أفيرضى عليك أو يرفع وجهك) ملاخي 1 ـ 8.

وقد ظل وضع المعبد اليهودي على حاله. وظلت العبادة على حالها حتى مجيء المسيح عليه السلام. فالمعبد كما وصفه الإنجيل أصبح مكاناً لبيع الحمام وتجّار الذهب الذين جعلوا من الربا وسيلة مشروعة ومنتشرة بين كافة اليهود.

وقد دخل السيد المسيح عليه السلام المعبد فقلب طاولات الصيارفة، وهاجم بائعي الحمام واستفحل العداء بين السيد المسيح وبين الكتبة الفريسيين. حتى أنهم أضافوا على تلمودهم كلاماً شريراً عن السيد المسيح فوصفوه بابن

---

(1)(2) أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية صفحة 206، 221.

الزانية. وإنه رجس شيطان ومارق على الدين.

وقد تعرض معبد اليهود في زمن الحملات الإغريقية عام 164-165ق.م. وفي عهد انطيوخس بالذات إلى الهجوم والتدمير. ثم أقدم هذا الملك السلوقي على نهب خزائن المعبد وأجبر اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية.

وبعد تغلغل الرومان وتغلبهم على السلوقيين أصبحت فلسطين تحت سيطرتهم. وفي عام 70 ميلادية دخل فسبسيان الروماني القدس وأحرقما بقي من الهيكل وذبح الكهنة وأزيل الهيكل من الوجود تماماً ولم يعد يهتدي الناس إلى موضعه. وسيق الأحبار اليهود عبيداً إلى روما. وفي هذا العهد قضي على المجمع الكهنوتي المسمى بالسنهدرين. وقد أقام الرومان في القدس معبداً وثنياً أطلقوا عليه معبد جوبتر. ولم يعد يسمع عن عبادة يهودية في فلسطين.

وقد تحدث القرآن الكريم عن دور الكهنة والأحبار في سلب الناس أموالهم وتكديس الذهب والفضة. كما تحدث عن غرورهم وأمانيهم وعدم رضاهم عمن لم يتبع ملتهم وأقوالهم وجرأتهم على الله والأنبياء. وشدة حرصهم على الحياة وكيف أن الله أخذ الميثاق عليهم. وقد ركز على تحريفهم لكلام الله واستعمالهم الليّ (الاعوجاج) في كلامهم. ثم تناول معاندتهم وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء.

وكما رأينا في التوراة كيف أصبح كهنة معبد يهوه موظفين لا يهمهم سوى جمع المال من الذهب والفضة. فإن القرآن الكريم أتى على ذكر سلوكهم وذمهم وذم سلوكهم يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34].

فما هو معروف أن الأحبار والرهبان وُجدوا ليخدموا معابد الرب ولكنهم راحوا يستغلون مناصبهم الدينية لجمع الثروات وهذا ما يتفق عليه كلام التوراة وآيات القرآن الكريم.

وتقع على كهنة اليهود مسؤولية تحريف التوراة باعتبارها كتاب التشريع الأول في العقيدة اليهودية. وتحريف التوراة يعني حذف ما يضر مصالح الكهنة، ووضع ما هو في صالحهم: يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187].

وقد حدد القرآن الكريم أن فريقاً منهم كان يحرف كلام التوراة التي أنزلت على موسى وهذا الفريق هم الكهنة. لأنه ليس من حق غيرهم الأشراف على الدين اليهودي وتشريعاته.

يقول تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ ﴾ [النساء: 45].

ويقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 75].

وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم سماعون للكذب ويحرفون الكلام.

يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: 41].

إذاً لقد وقعت مسؤولية حفظ العقيدة وما فيها من عبادات على عاتق الكهنة وهم كما وصفهم القرآن الكريم وكما تحدث عنهم أنبياؤهم يتاجرون بالتوراة.

ويتضح أن الكاهن فوق الحلال والحرام ولقد خاطبه الرب في سفر العدد بقوله (كل محرم في إسرائيل يكون لك) عدد 18: 14 وليس هذا استثناء إنه يشمل

كل شيء ابتداء من الزنا ونهايةً بعبادة الأصنام. والكهنة الأواخر اشتغلوا كهنة للأصنام وعبدوها وعندما أرادوا تبرير ذلك قالوا: إن هارون أول الكهنة هو الذي صنع العجل صنماً لبني إسرائيل حتى يعبدوه ورغم ذلك لم يعاقب بالقتل كما عوقب غيره.

مما تقدم نخلص أن الله فرض عبادات على بني إسرائيل منها الصيام والصلاة والقرابين وبناء المعابد وغيرها من العبادات. وقد رأينا أن هذه العبادات كانت في البداية لا تقترن بوقت محدد، وليس لهم معبد ثابت في مكان ثابت ومع تطور حياتهم، حاولوا تطوير عباداتهم حتى وصلوا إلى الحالة القانونية في أواخر أيام السبي وأوائل التسرب الثاني إلى فلسطين.

وقد استطاع أحبار اليهود وكهنتهم أن يسيطروا على طبيعة العبادات، بحيث يوجهون اليهود التوجيه الذي يريدون، ثم إن تطور حياتهم واحتكاكهم بالشعوب الموجودة في المنطقة أثّر جداً في تطوير نظرتهم للمعبد والعبادات، خاصة أن تلك الشعوب كالكنعانيين والبابليين كانت لهم معابدهم وطقوسهم وعباداتهم.

وقد تبين لنا أيضاً أن أنبياء بني إسرائيل في المراحل المتأخرة من حياة اليهود قد نقموا على تصرفاتهم وسلوكهم بل وانحرافهم القوي نحو عبادة الأصنام، وأسفار التوراة تشير إلى هذه النقمة المستمرة.

وقد أوجز القرآن الكريم في وصف انحرافاتهم عن عبادة الله وتحريفهم التوراة بل وكتابتها بأيديهم وقولهم إنها من عند الله. وكلهم كذب ونفاق.